قصّة مدينة

ملخص عن كتـــاب "درنة الزاهرة"
للشيخ مصطفى الطرابلسي

محتويات الكتاب

1. أصــــل الاســـــم :

لم يرد أسم (درنة) علماً لمدينة أو لموقع فيما كتبه المؤرخون القدامى الذين تحدثوا عن إقليم (برقة)قبل منتصف القرن السادس (ق. م) أي قبل هجرة الثيريين إلى جزيرة (بلاتيا)(PLATEA) الواقعة شرقي مدينة (درنة) بنحو 60 كيلومتر وهي ما تسمى الآن (البمبة) أو (خليج البمبة).
ويرى بعض المؤرخون أن درنة كانت عامرة قبل مجيء الإغريق وكانت تعرف باسم (إيراسا) (IRASA) واتخذها الليبيون عاصمة لما يسمى (مرماريكا) غير أنه لم يذكر شيئاً عن هذه الدولة التي اتخذت إيراسا عاصمة لها لان وجود عاصمة يدل على وجود دولة. ويرى البعض الآخر أن (إيراسا) قد تكون هي درنة وقد تكون قرية (عين مارة) الواقعة غرب درنة بحوالي (20 كيلومتر) والواقع أن أسم إيراسا قد ورد عند قدوم جماعة (الثيريين) إلى (خليج البمبة) واستيطانهم بالجهات المجاورة لهذا المكان أول ما نزلوا وقد نشأت بينهم وبين الليبيين من قبيلة (الجيليغامي) التي كانت منازلها في هذه البقاع علاقات من التعارف والجوار، غير أن أبناء هذه القبيلة خشوا أن يقع نظر هؤلاء الوافدين على (إيراسا) فيتخذونها لهم موطناً ومقراً، ورأوا أن يبعدوهم عنها فنصحوهم أن يتحولوا إلى مكان آخر أكثر ملائمة، فساروا بهم ليلاً حتى اجتازوا هذه البقعة ثم دلوهم على المكان المجاور لنبع (شحات) فاستقر بهم المقام هناك، فكانوا النواة الأولى لازدهار الحضارة الهيلية في الجزء الشرقي من ليبيا.

---

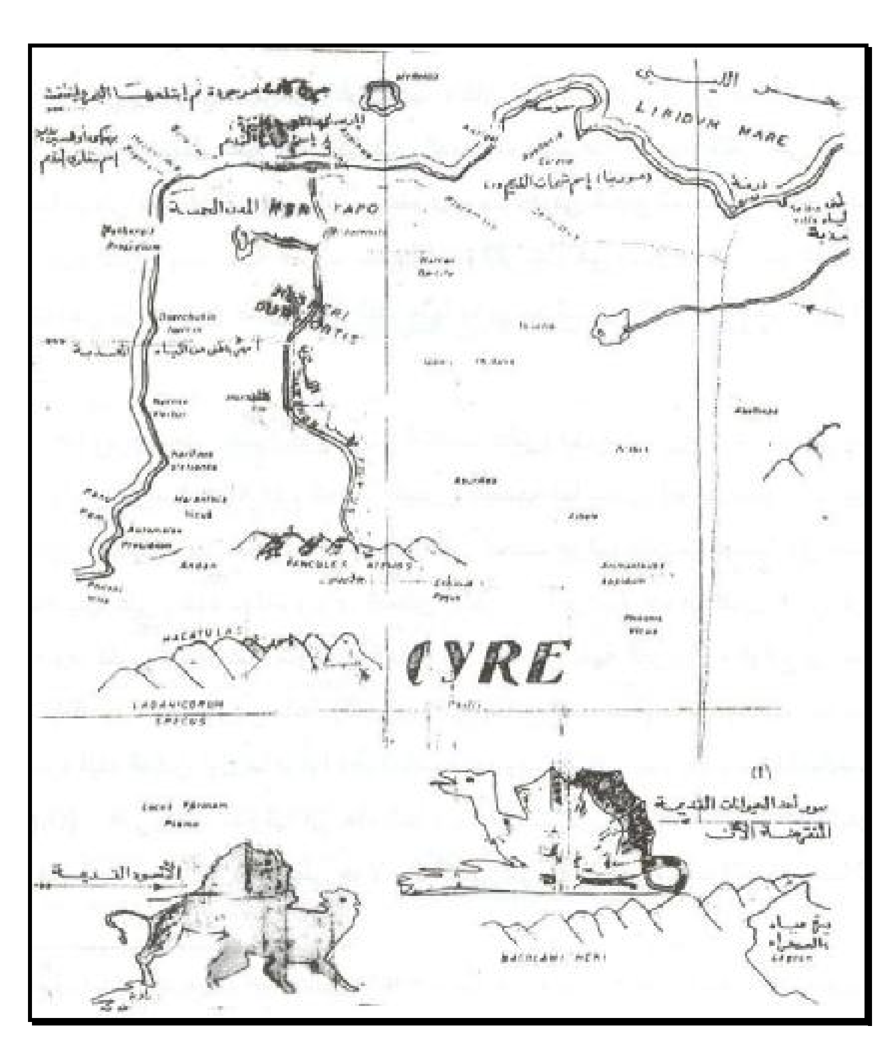
2. درنة في عهد البطالمة :

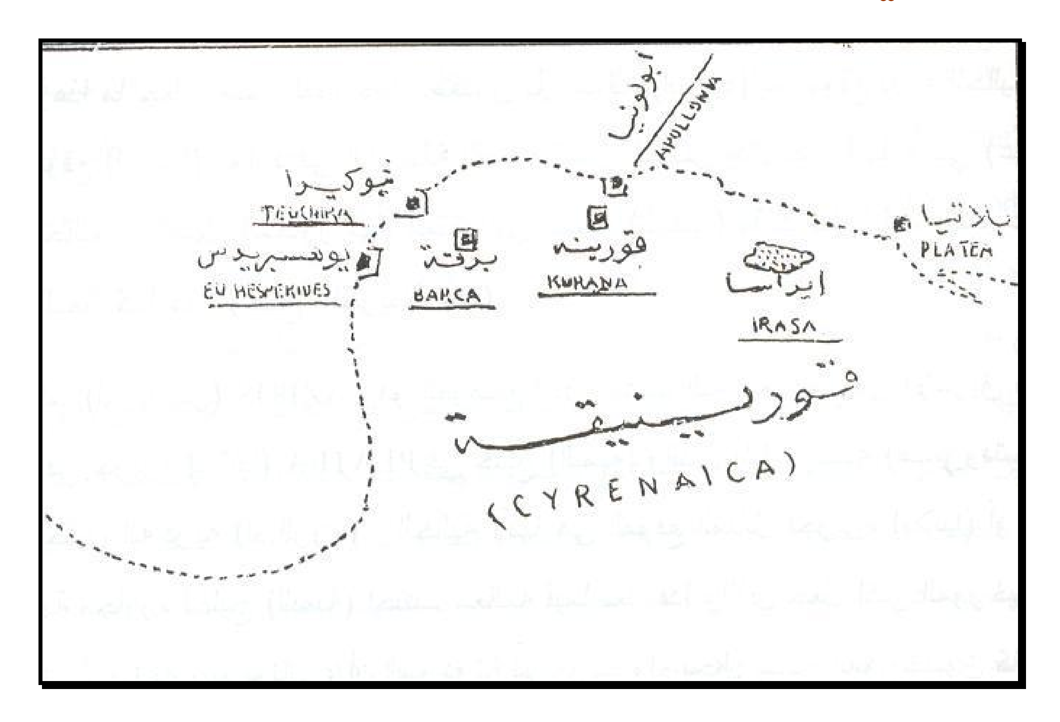
أول من ذكر اسم درنة هو (بطوليمس : ويسمى كلوديوس بطيلموس، وهو من غير أسرة البطالمة الذين حكموا مصر بعد موت الإسكندر، وانما هو فلكي وجغرافي ظهر في القرن الثاني للميلاد وألف كتاباً في الجغرافيا) وقد قال في كتابه الرابع (إن برقة تنتهي شرقاً مع حدود (مارماريكا) على السمت من منفذ درنة وشمالاً عند خط طول (51.15°) وعند خط عرض (25°).
وقد كان البطالمة كثيراً ما يسمون المدن التي ينشئونها أو وقعت تحت حوزتهم بأسماء ملوكهم وملكاتهم أو بعض معبوداتهم، ولم يعرف عن معبود أو حاكم أو ملك أو ملكة من اليونان سواء في عهد اليونان الأول أم في عهد البطالمة يحمل أسم (دارنس) مما يرجح أن هذه الاسم ليبي الأصل أبقاه البطالمة على أصله القديم وأضافوا إليه حرف (S) الذي هو علامة الرفع للاسم المذكر في اللغة اليونانية.

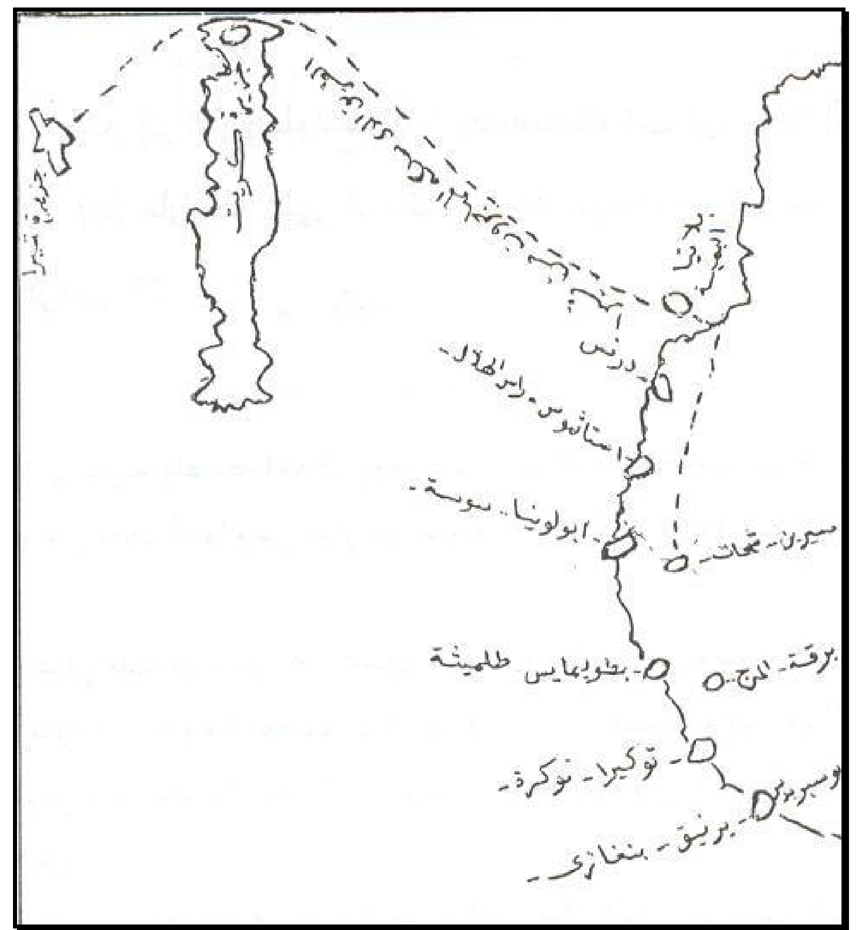
يقول الأستاذ : علي فهمي خشيم في بحث تاريخي له بعنوان (قراءات ليبية) :

"أما دارنس فهي مدينة درنة الحالية وهي كلمة ليبية أيضاً ربما تعني (بين الجبال) أو (وسط الجبال) كما هو موقع درنة، ولا تزال كلمة (أدرار) القديمة تعني الجبل، وتعني كلمة (الأدورماخيداي) أهل الجبل أو سكانه... " ويستطرد قائلاً : "ولقد تتبع بيتس في كتابه الكبير (الليبيون الشرقيون) أصول اللغة الليبية القديمة وما بقي منها فوجد كلمة (إيراسا)، والتي ذكر هيرودوت أن اليونان هبطوا فيها قبل (قورينا) تعني المهبط أو المرسى".

وهناك كلمة أكثر وضوحاً وأقرب إلى الدلالة وهي كلمة (دَرَن) أو (دِرِن) التي تعني الجبل في اللغة القديمة.. هذا وهناك أدلة أخرى تثبت أو ترجح أن درنة اسم من أصل ليبي قديم لا من أصل يوناني منها ورود اسم درنة أو دارنس مقروناً بلفظة (زيرينا)، وهي أما صفة لاسم درنة أو مضاف إليه من اسم (أزيريوس) وهو معبود أسطوري مصري قديم انتقلت عبادته إلى الليبيين، ولاسيما القاطنين في الشق الشرقي من ليبيا.




أبولونيا
APOLLONIA
تيوكيرا
TEUCHIRA
يوهسبريدس
EU HESPERIDES
برقة
BARCA
قورينه
KURANA
ايراسا
IRASA
بلاتيا
PLATEA
قورينيقة
(CYRENAICA)


درنيس
راس الهلال
استاثيوس
ابولونيا - سوسة
سيرين - شحات
بطوليمايس طلميثة
برقة - المرج
توكيرا - توكرة
برنيق - بنغازي

3. درنة في العهد الروماني :

انتقل حكم إقليم برقة من أيدي البطالمة - خلفاء الإسكندر إلى أيدي الرومان منذ سنة 96 ق.م وذلك بعد موت (بطليموس أبيون) آخر ملوك برقة من البطالمة والذي أوصى قبل موته بأن يكون إقليم برقة تابعاً لروما، وبذلك أصبحت ليبيا بشقيها الشرقي والغربي ولاية رومانية بيزنطية.

أما عن انتشار الديانة المسيحية بين السكان في هذه البقاع وما جاورها بعد اعتناق الرومان لدين السيد المسيح عليه السلام، فهذه البقعة وما جاورها - يعني درنة وما جاورها - لم تخل من السكان حتى الغزو العربي، وأنها كانت مقر (أسقفية) منذ القرون الأولى من العهد المسيحي، ومن المحتمل أن المغارات الواقعة في المنطقة الصخرية، شرقي المدينة والتي لا تزال باقية، تحمل اسم موضع الصلاة لقدامى المسيحية، حيث أن هذه المغارات تسمى (الكنيسية) وكلمة (الكنيسية) مشتقة من أصل لاتيني (Ecc’sia).

غير أن المسيحية لم تنتشر بصورة عامة في ليبيا إلا في عهد (يوستينيا نوس) الذي اعتلى عرش القسطنطينية سنة 533 م، والذي وجه عناية كبيرة إلى تحصين المدن والقرى، وغلى تشييد الأديرة والكنائس وخاصة في إقليم برقة، وحمل السكان، وحتى اليهود على اعتناق المسيحية ونبذ كل عبادة سواها، غير أن هذا لا ينفي ظهور المسيحية وانتشارها منذ القرون الأولى لظهور المسيحية.. فمثلاً هناك (سمعان القوريني) نسبة إلى قورينا، أو جاء إلى هذه النواحي للتبشير بدين المسيح، وهناك القديس أو الحواري (مرقص) (سان مارك) صاحب الإنجيل المسمى باسمه، والذي أسس أول كنيسة في إقليم برقة على ما يذكره الباحثين والذي ينسب إليه (وادي مرقص) الواقع بين مدينة درنة وبلدة سوسة، وكذلك قدوم جماعة أخرى من الرهبان والقسيسين إلي هذه المناطق يدعون للمسيحية ويتخذون من الكهوف والمغارات أديرة وصوامع للعبادة كما في المغارات الواقعة شرقي درنة المسماة (الكنيسية) وكذلك يوجد إلى الجانب الشرقي من هذه الكنيسية بنحو (15 كيلومتر) كهف يسمى (كهف الراهب) يجاوره نبع صغير اسمه (أم عمود) ويذكر عنه بعض الإيطاليين أن الأطفال كانوا يعمدون فيه (التعميد أو المعمودية عند النصارى : غمس الطفل في ماء باسم روح الأب والابن وروح القدس، في اعتقادهم)، وعلى الشرق من هذه النبع بحوالي (8 كيلومترات) نبع آخر يسمى (مراد لوقي)، نسبة إلى الحواري (لوقا) صاحب الإنجيل المسمى باسمه أو نسبة إلى راهب اسمه (لوقا).

وهناك أيضاً (وادي الإنجيل) الواقع غربي (وادي مرقص) الذي تقدمت الإشارة إليه (واسقفه) المجاورة لقرية (بيت ثامر) على مسافة (40 كيلومتر غرب درنة).

وينسب بعض المؤلفين الغربيين ومن بينهم (دي اغستيني) خراب الأديرة والكنائس وتقلص المسيحية عن هذه البقاع إلى الفتح العربي الذي جلب الإهمال والخراب - بزعمهم - وهي تهمة باطلة، أرادوا أن يلصقوها بالفتح الإسلامي لهذه الأرض،

وليس أدل على بطلان هذه التهمة من بقاء المسيحية في الأقطار التي فتحها المسلمون، وحافظوا على ديانة أهلها، سواء كانوا يهوداً أو نصارى.
ثم أن تقلص المسيحية في ليبيا بصفة عامة، لم يحدث نتيجة للفتح الإسلامي، وإنما حدث نتيجة لغزو الوندال لهذه البلاد، حيث حملوا على أهلها على ترك النصرانية، بطريق العنف تارة واللين أخرى ، كما عاثوا في الأديرة فساداً وتخريباً، ولم ينقذ المسيحيين من تسلط أولئك الوندال إلا الليبيين أنفسهم بقيادة (كاباون اللواتي)، الذي تصدى لمحاربة الوندال وانتصر عليهم وأباد جموعهم، فلم ينج منهم إلا القليل، وهذا يبرئ المسلمين من تلك التهمة التي الصقها بهم أولئك المتعصبون من الكتاب والمؤرخين الذين يحاولون تبرئة بحوثهم ودراساتهم من التعصب الديني والقومي.

4. درنة بعد الفتح الإسلامي :

لم يبرز اسم درنة في تاريخ الفتح الأول لأقطار المغرب، إذ أن أهل برقة قد صالحوا قائد الفتح الأول (عمرو بن العاص) على جزية قدرها ثلاثة عشر ألف دينار، يقدمونها لبيت المال في مصر كل عام.
ولقد ظل إقليم برقة منذ الفتح الأول إلى عهد (عبد الله بن أبي سرح) آمناً مطمئناً باقياً على عهده مع ولاة مصر، باقياً مع عهده مع مصر ومكث فترة طويلة لا يدخله جابي خراج، طبقاً لشروط الصلح، التي عقدت مع عمرو بن العاص.
وفي الثلث الأخير من القرن الهجري الأول، برز اسم درنة، حيث استشهد القائد زهير بن قيس البلوي ورفاقه المجاهدون من الصحابة والتابعين، ودفنوا جميعاً بدرنة.

استشهاد زهير بن قيس البلوي ورفاقه في مدينة درنة

جاء (زهير بن قيس البلوي) إلى بلاد المغرب غازياً مجاهداً وأبلى في معارك الجهاد والفتح بلاءً حسناً، وساهم في تلك الانتصارات الباهرة التي أحرزتها الجيوش الفاتحة، بجانب ما اشتهر به من التقوى والورع، وقد صحب عقبة بن نافع - والي طرابلس وأفريقية "تونس"- في غزواته ببلاد المغرب وعرف عقبة صدق زهير في جهاده وحسن بلاءه، فجعله في مقدمة جيشه ولما استشهد عقبة سنة (63هـ)، عزم زهير على مواصلة القتال وخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني، وكان من أصحاب الرأي والنفوذ في الجيش، فعزم زهير على العودة إلى مصر بعد هذا الخلاف، وتتبعه كثير من الناس غير انه لم يواصل رحيله إلى مصر، فعرج بمن معه على إقليم برقة، وأقام بها مرابطاً كما فعل (عقبة بن نافع) من قبل إذ أن الرباط باب من أبواب الجهاد.
هذا ولما وصلت أنباء مقتل عقبة وأصحابه إلى (عبد الملك بن مروان) استشار أهل الرأي فيمن يأخذ بثأر عقبة، ويتولى قيادة الجيش من بعده، فأشاروا عليه بأن ينتدب

(زهير بن قيس)، إذ هو صاحب عقبة واعرف الناس بسيرته وأولاهم بأخذ ثأره، وكتب عبد الملك بن مروان إلى زهير في برقة، يأمره أن يتوجه إلى إفريقية (تونس) لقمع ثورة المرتدين والثأر لعقبة بن نافع، وأمده بالمال والرجال.
خرج زهير على رأس جيش كبير، حتى بلغ القيروان (سنة 67هـ) وهناك التقى زهير بـ (كسيله) وجيشه في معركة طاحنة، أسفرت عن مقتل (كسيله) واندحار جيشه، ودخل زهيراً مدينة القيروان ظافراً منتصراً، ورأي فيها ملكاً عظيماً ورفاهية وبذخاً فخاف أن تميل نفسه إلى الحياة والترف والرفاهية، أو أن تطمع إلى الحكم والولاية، وهو إنما جاء للجهاد في سبيل الله، ولما يبق أمامه إلا أن يرجع إلى ارض المشرق التي عاش فيها حياة الزهد والعبادة وقد رافقه في رجوعه جماعة من كبار المجاهدين.
وصادف أن أغارت سفن رومانية على شاطئ (درنة) وعاثت في المدينة قتلاً ونهباً وسبياً، وتلقى زهير وأصحابه نبأ هذه الغارة وهم يسلكون طريق الصحراء الشرقية من برقة فلووا أعنة خيولهم نحو الساحل، ولما دنوا من المراكب المغيرة رآهم الأسرى الذين وقعوا في قبضة المغيرين، وهم يقادون إلى المراكب مكرهين فاستغاثوا بهم، فثارت حمية زهير ونادى أصحابه، فنزلوا عليهم وهم العدد القليل، واشتبكوا مع الروم المغيرين واستبسل زهير ورفاقه، ولكن جموع الروم أحاطوا بهم من كل جانب فاستشهد زهير ورفاقه في ساحة المعركة الغير متكافئة، وتمكن الروم من النجاة واقلعوا بمراكبهم يحملون الأسرى والغنائم، ودفن زهير وصحبه في البقعة التي عرفت باسم (جبانة الصحابة) بمدينة درنة.
وهذا وقد شرفت البقعة التي ضمت رفات (زهير بن قيس) ورفاقه بمدينة درنة فكانت ومازالت مقصداً للزوار من سكان المدينة والقادمين إليها يتبركون بهؤلاء الشهداء الأبرار ولاسيما إنهم من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن التابعين له رضوان الله عليهم جميعاً، وقد برز من بين رفاق زهير الذين استشهدوا معه مجاهدان كبيران هما : (عبد الله بن بر القيسي)، و (أبو منصور الفارسي).
وقد شيدت (بجبانة درنة) ثلاثة أضرحة وهي ذات قباب من الطراز المعروف في بناء اضرحة الأولياء والصالحين، الضريح الأول (لزهير بن قيس) ويقع على يسار الداخل، يليه الضريح الثاني وهو (لعبدالله بن بر القيسي)، والثالث ضريح (أبي منصور الفارسي) يقع على يمين الداخل، وبابه لجهة الغرب، وبين هذه الأضرحة الثلاثة في مواجهة الداخل مبنى يشبه الحجرة الصغيرة، قد أقيم الثلاثة على مدخل المغارة، التي دفن فيها بقية الشهداء من رفاق (زهير بن قيس) ويبلغ عددهم نحو (سبعين) على أصح الروايات، وقد تم تشييد هذه الأضرحة في القرن الحادي عشر الهجري.

التعريف بهؤلاء الشهداء :

1- زهير بن قيس :

هو أبو شداد، زهير بن قيس البلوي، نسبة إلى (بَلّى) وهي فخذ من قضاعة، ويسميه السكان (سيدي زهيري)، ويترجم له الحافظ بن الأثير في كتابه (أسد الغابة في معرفة الصحابة) بقوله : "زهير بن قيس البلوي، قال أبو مأكولا، : يقال إن له صحبة، وهو جد زاهر بن قيس بن زهير بن قيس، وكان زاهر والي برقة لهشام بن عبد الملك ، وقبره ببرقة "، وترجم له ابن حجر في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة) بقوله : "زهير بن قيس البلوي، قال ابن يونس يقال : إن له صحبة، يكنى أبا شداد، شهد فتح مصر وروي عن علقمة بن رمثة البلوي، وروي عنه سويد بن قيس، وقتله الروم ببرقة سنة (76هـ)".

2- أبو منصور الفارسي :

هو أبو منصور، ولقبه (الفارسي) يدل على أن أصله من الفرس، ويسميه السكان (سيدي بومنصور)، وقد ترجم له الحافظ بن عبد البر، كتابه (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ترجمة موجزة قال : "أبو منصور الفارسي، له صحبة عند من ذكره من الصحابة ...." وترجم صاحب (عالم الأيمان) لأبي منصور الفارسي، وعده فيمن دخل إفريقية (تونس) من صغار الصحابة ممن ولد في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يره، وذكر "انه كان فقيهاً قارئاً للقرآن متفنناً في العلم ... الخ".

3- عبد الله بن بر القيسي :

يدل لقبه على انه من (قيس عيلان) أشهر القبائل المضرية.. ومن الراجح انه من التابعين ويسميه السكان (سيدي الزوام) وسبب التسمية هو وجود بيض نعام داخل قبره، وهذه البيض يتمدد وقت الحر فيصدر صوتاً خاصاً يشبه الأنين أو الزفير.

أما بقية الشهداء الذين دفنوا داخل المغارة في (جبانة الصحابة)، والذين يبلغ عددهم نحو السبعين، فالراجح أن أكثرهم أن لم يكونوا كلهم من التابعين الذين ساهموا في فتح بلاد المغرب.

الأسر الأندلسية في مدينة درنة

نستطيع أن نحدد بداية مجيء (الجماعات أو الأسر الأندلسية) إلى (درنة) بأنها كانت قبل نهاية القرن العاشر للهجرة، أي القرن السادس عشر للميلاد، أي بعد استيلاء قبائل (أولاد علي) على الجزء الشرقي من إقليم برقة بفترة قصيرة، وقد تم مجيء هذه الجماعات على دفعتين وعلى فترتين من الزمن، فالدفعة الأولى تنحصر في مجيء جماعة قليلة، خرجت من تونس قاصدة حج بيت الله الحرام وعند رجوعها من أراضي الحجاز نزلت بمدينة درنة وأقامت بها.

أما مجيء الدفعة الثانية من الجماعات الاندلسية فقد حدده (كوستانزو بيرنا) بأنه كان سنة (1637م، 1047هـ) وذلك حينما طلب (موسى تغارين) نائب (قاسم باشا) والي طرابلس، طلب من (يوسف - باي تونس) ملتمساً منه أن يمده بجماعة من الاندلسيين المقيمين بتونس ليعمروا برقة التي تمتاز بخصوبة أرضها، فاستجاب (باي تونس) لطلبه وجهز أربعة مراكب على ظهرها (800 مزارع) جاءوا جميعاً إلى مدينة درنة، واستقروا بها وشرعوا يزرعون الأرض ويجلبون المياه إليها ويقيمون مباني للسكن بزعامة (موسى تغارين).

وقد اشتهرت من الأسر الأندلسية بمدينة درنة بجانب (أسرة عزوز)، و(أسرة المؤدب)، و(أسرة الأمام)، ومن الأسر التي كانت تقيم بمدينة درنة (أسرة زيتون)، ومن المحتمل أنها هاجرت إلى مصر أبان الغزو الإيطالي.

هذا وهناك فرع من قبيلة (الشواعر) القاطنين بالصفة العليا من وادي درنة (رأس الوادي) يذكرون أن أصلهم من بلاد الأندلس وأن جدهم (محمد ولد منصور الشاعري) قدم إلى الجبل الأخضر بعد خروج العرب من الأندلس.

5. درنة في العهد العثماني الأول :

طرد العثمانيون (فرسان القديس يوحنا) من (طرابلس) سنة 957هـ - 1551م وبذلك أصبحت ليبيا ولاية عثمانية ظلت قاصرة على طرابلس ونواحيها أما إقليم (برقة) فلم يخضع لولاة طرابلس الذين يعينهم السلطان العثماني إلا بعد فترة طويلة من تاريخ العهد العثماني.

وازداد نشاط الأسر الأندلسية في استثمار مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزرع والغرس، وفي جلب الماء إليها من العين التي سميت فيما بعد (بعين البلاد) كما نشطت في تشييد المباني السكنية.

ولابد أن هناك جماعة من أبناء القبائل المجاورة من (أولاد علي) أو غيرهم قد استقروا بمدينة (درنة) بعد انتعاش الحياة فيها، غير أن الأسر الأندلسية كانت صاحبة النفوذ وكانت تقوم بنشاط داخلي وخارجي، ففي سنة 1048هـ - 1638م ثار سكان مدينة (بنغازي) على الحامية العثمانية، واستنجدوا بسكان مدينة (درنة) فانجدوهم وساعدوهم على محاصرة رجال الحامية العثمانية داخل حصنها حتى أنقذهم منها (عثمان باشا الساقزلي.. الذي عين والياً على طرابلس سنة 1060هـ - 1560م في عهد السلطان محمد خان الرابع وقد تظاهر عثمان باشا الساقزلي ومنذ هذه الفترة في بداية حكمه بإقامة العدل وتخفيف الضرائب ثم غير اتجاهه الأول وانتهج أساليب القسوة والخديعة والطغيان وارتكب من الدناءة والفحش ما يتتره القلم عن ذكره وقد استمرت ولايته إلى سنة 1083هـ - 1672م). فاستولى على بنغازي، وقد كانت لهذه النجدة "نجدة سكان درنة لإخوانهم سكان بنغازي" أثرها فيما بعد إذ جهز عثمان باشا الساقزلي جملة قوامها جند من الأتراك والمرتزقة، فاستولت على

مدينة درنة وانتقم ممن ساهم في ثورة سكان مدينة بنغازي على الحامية العثمانية، ومنذ ذلك الحين أصبحت درنة مدينة خاضعة للحكم العثماني، فقد حدثنا العياشي.. وهو حاج مغربي تحدث عن مدينة درنة سنة 1072-1073هـ الموافق 1661-1662م في رحلته "أن الاندلسيين الذين عمروا مدينة درنة ثاروا على أمير طرابلس، فأخرجهم منها بعد وقعة قتل فيها مئات من أشرافهم، ثم عادت إلى طاعته".

المصلح الكبير (أمحمد باي)

هو ابن المرحوم أمحمد باي قرمنلي، ينتمي إلى الأسرة القرمانلية التي قدمت إلى طرابلس الغرب من بلاد الأناضول بتركيا في العهد العثماني الأول وكان لهذه الأسرة نشاط معروف ونال أبناؤها الحظوة لدى ولاة طرابلس في ذلك العهد، وأسندت إلى جماعة منهم وظائف إدارية وعسكرية حتى استطاع (احمد باشا) أن يستقل بحكم الولاية عن الدولة العثمانية ويؤسس لأسرته حكماً استمر قرناً وربع قرن من الزمان، هذا وقد عين (أمحمد باي) أميراً (واليا) على درنة والجبل الأخضر حلفاً لوالده (الحاج محمود باي) الذي عينه (عثمان باشا الساقزلي) حاكماً على (بنغازي والجبل الأخضر ودرنة) في الثلث الأخير من القرن حادي عشر للهجرة، أي النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد، أي في العهد العثماني الأول.

واستمرت ولاية (أمحمد باي) إلى سنة (1110هـ - 1698م)، ويسميه سكان درنة (سيدي أمحمد بَيْ)، وقد ازداد نمو مدينة درنة على يده، حيث يذكره أهل درنة بالتقدير والاحترام وهو ليس حاكماً مصلحاً فحسب، أو كأحد (الدايات) التي احتفظ بمنصبه مدة زائدة، وإنما هو رجل ثري نشأ في أسيا الصغرى، واستقر به المقام في مدينة درنة، وإليه تنسب إصلاحات وأعمال هامة.

ومن أكبر الأعمال التي أنشأها وأتمها في مدينة درنة في سنوات حكمه:

1- المسجد الكبير، ويسمى (المسجد العتيق)، أو (جامع البلاد) : وقد تجلت فيه متانة البنيان، ودقة الهندسة وجمال فن المعمار الإسلامي، فقد سقف بـ (42 قبة) ذات أقواس هندسية، تحملها (30 سارية) من المرمر المصقول تحيط بها أركانه الأربعة ونصب به (منبر من خشب السناج) نقشت حواشيه وجوانبه بنقوش بديعة، كما شيدت بجانبه مئذنة مثمنة الشكل، يبلغ ارتفاعها نحو (20 متر) وألحقت به حجرتان وركن للمواضيء، ويبلغ طول المسجد نحو (29 متر) وعرضه نحو (23 متر) وله أربعة أبواب اثنان في الجانب الغربي والثالث في الجانب الجنوبي والرابع في الجانب الشمالي وهو يتسع لنحو (2000 مصلي) وتقول الرواية المحلية أن المرحوم (سيدي أمحمد بي) قد استعان في تشييد هذا المسجد باثنين من المهندسين

جاءا إلى مدينة درنة من (اسطنبول)، وأن أحداهما توفي في مدينة درنة، ودفن في الحجرة (الخلوة) الملاصقة بالمئذنة، هذا ومن محتويات هذا المسجد، ساعة حائطية كبيرة، ولكنها تعطلت أخيراً، وشعرة منسوبة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهي محفوظة في زجاجة داخل صندوق صغير وقد ظل سكن المدينة يتبركون بزيارتها في الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف من كل عام.

2- شق قنوات المياه (الساقية) : في الحديث عن مجيء الأسر الأندلسية، واستقرارها بمدينة درنة أن أول أبناء هذه الأسر، قد استغلوا جانباً من مياه مدينة درنة، في سقي وري الحدائق والحقول، والتي استصلحوها بالمدينة، غير أن ذلك كان مقصوراً على نبع (عين البلاد)، أما نبع (عين بو منصور) فقد ظلت مياهه تنساب في أعلى الوادي، وهي التي وصفها العياشي بأنها (بحار من الغدير في أعلى الوادي متصلة في صخور منقورة وبرك من صنعة الجبار بالماء مغمورة).

وقد تحققت الاستفادة من هذه المياه النابعة الغزيرة، في عهد (أمحمد باي) الذي نحت لها قنوات عبر الصخور، وأقام جسراً كبيراً يصل بين ربوتين في المكان المسمى (حلق بورويس) في الوادي، وبأعلى الجسر قناة يتدفق فيها الماء من ضفة إلى ضفة، كما شق بقية القنوات على امتداد ضفتي الوادي حتى شملت جميع أنحاء المدينة وامتدت قنوات الساقية غرباً إلى ناحية (عليوات بالرمان)، وشرقاً إلى أقصى (بطحة المكاوي) وشمالاً إلى شاطئ البحر، تسقي وتروي كل ما تمر به من حقول وبساتين بماء عذب فياض، هذا فضلاً عن أن كثيراً من سكان مدينة درنة، وخاصة سكان حي المغار وحي بومنصور يستقون مياه شربهم من تلق القنوات، الممتدة وسط مزارعهم ومساكنهم كما أن بعض المنحدرات التي تتدفق منها مياه الساقية، قد استخدمت في إدارة أرجاء كبيرة (طواحين) لطحن الغلال، بواسطة دواليب من الخشب.

كما أن للمصلح (أمحمد باي) أعمال أخرى وكذلك انه وقف الكثير من ماله وأراضيه وجعلها احباساً ووقفاً للصالح العام مثل الأرض التي جعلها وقفاً قرب جبانة الصحابة، والتي جعلها مقبرة لدفن أموات المسلمين، وسميت (جبانة سيدي أمحمد بي).

توفي (أمحمد بي) في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان سنة 1110هـ - فبراير 1696م ودفن داخل القبة الملاصقة للجامع الكبير الذي بناه بمدينة درنة وقبره لازال قائماً إلى الآن ولم يطمس منه إلا احد شاهديه وقد نقش تاريخ وفاته على قطعة من الحجر فوق باب القبة إلا أن بعض الكلمات قد طمست واستدللنا عليها بآثارها وببعض الحروف الباقية منها، ونص هذه الكتابة هو "قد انتقل إلى رحمة الله تعالى أمحمد القرمانلي بن محمود باي الثاني عشر شعبان عام 1110هـ" .. وكان قد شيد هذه القبة في حياته وأوصى أن يدفن فيها بعد وفاته كما جاء ذكر ذلك في وثيقة محررة في شهر صفر من سنة 1251هـ، قدمها صورة منها صديق المؤلف الحاج الفاضل (عبد الرحمن البي)من ذرية المرحوم (أمحمد باي).

وهذه هي سيرة أمحمد باي وتلك هي أياديه البيضاء التي أسبغها على مدينة درنة والتي جعلته موضع تقدير واحترام وإجلال في نفوس أهلها وبوأته مكاناً رفيعا بين

سائر الولاة والحكام والتي جاءت دليلاً قاطعاً على أن أمحمد بي قد اجتمعت فيه صفات الحاكم والمصلح الخبير فضلاً عن صفات الكرم والورع والتواضع رحمه الله وأثابه ثواب العاملين الصالحين، أما عن ذريته رحمه الله بمدينة درنة فمنهم الآن أسرة المرحوم (محمد خلوصي) الذي عين مفتياً بدرنة بعد تخرجه من الجامعة الأزهرية والذي توفي سنة 1360هـ - 1941م وتسمى (عائلة البي)، كما أنها تسمى عائلة المفتي.

وبعد هذه الفترة بدأ يتقلص الحكم العثماني الأول عن ليبيا ليجيء دور الأسرة القرمانلية لتبسط نفوذها على هذا الجزء من الأرض وهي الفترة التي أعقبتها (تجريدة حبيب).

تجريدة حبيب

التجريدة والجردة في اللغة الدارجة تعني النجدة والحملة، أما التجريدة في الفصحى فهي من التجريد وهو القشر والنزع والتعرية، والجردة بمعنى البرذعة الخلقة والخرقة البالية والصواب أن يقال (جريدة) لأن الجريدة تأتي بمعنى الجماعة من الخيل التي ليس بين فرسانها ماش على رجليه.

هذا وتجريدة حبيب من أبرز القصص والحوادث التي يحفل بها تراثنا الشعبي فلقد تواترت أخبارها وتناقلت وقائعها السنة الرواة خلفاً عن سلف إذ هي تسجل وقائع صراع مرير استمر سنين طويلة بين قبيلتي كبيرتين هما (الحرابى، وأولاد علي) أسفرت عن هزيمة الأخيرة وجلائها إلى أقصى حدود ليبيا الشرقية، بعد أن بسطت نفوذها على جزء كبير من إقليم برقة الشرقي، وسيطرت عليه فترة غير قصيرة من الزمن.

وقد أضيفت (التجريدة) إلى (حبيب) وهو اسم بطل القصة والذي كان المنقذ لقومه وعشيرته من حياة القهر والهوان وعيش المذلة والصغار.

ولتجريدة حبيب رواية راسخة لدى أهل البادية بصفة خاصة وأن الدارس لتراثنا الشعبي ليجد فيها مادة خصيبة تسترعي نظره وتغريه بمواصلة البحث والاستقصاء، وسيلاحظ أن تجريدة حبيب في موضوعها وعناصرها تستمد أكثر حوادثها من الواقع إذ هي خالية من الإغراق في الخيالات المجنحة، التي هي حلق بها القصاصون في قصص (أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة) وان كان يعتريها بعض عناصر المبالغة وشيء من الخلط والتشويش.

ويرجح وقوع التجريدة حسب المقارنة والاستنتاج أنها حدثت في الربع الأول من القرن الثاني عشر للهجرة .. أوائل القرن الثامن عشر للميلاد أي في أواخر العهد العثماني وقبل بداية العهد القرمانلي الذي لم يتوطد في برقة إلا في سنة 1133هـ - 1720م وذلك بعد أن تولى أحمد باشا الحكم بتسع سنين.

هذا وقبل أن نسرد أحداث (تجريدة حبيب) فأننا نمهد لها بنبذة عن (الحرابى، وأولاد علي) فنقول: ينتسب كل من الحرابى وأولاد علي إلى السعادى، نسبة إلى سعدة

الزناتية بنت الزناتي خليفة التي تزوجها (الذئب أبو الليل)، فولدت له أبناؤه (برغوث وعقّار وسلام) وهؤلاء هم أصول قبائل السعادى التي تتفرع إلى كثير من البطون والعشائر (فالحرابى ينتسبون إلى حرب أو محارب) و(أولاد علي ينتسبون إلى علي) وهما أولاد العقّار بن الذئب أبي الليل زعيم من رؤوس بني سليم الذين استوطنوا مابين سرت غرباً وحدود الإسكندرية شرقاً واستوطن إخوانهم بني هلال ناحية الغرب من النواحي طرابلس وتونس وهذا ما أثبتته السير وانساب القبائل، وهو يدل على ان قبائل (السعادى) في برقة تنتمي، إلى بني سليم دون سواهم والواقع أن كثيراً منها ينتمي إلى (الهلاليين) أي من قبائل (هلال بن عامر بن صعصعة) وهذا له ما يبرره من عدة وجوه ..

الأول : أن القصص والأشعار التي يتناقلها أفراد هذه القبائل تدور كلها حول (أبي زيد الهلالي) وأبناء أخته (شيحة) مثل (مرعي وذياب ويحيى ويونس وغانم) وغيرهم من أبطال القصص الهلالية المعروفة ..

الثاني : هو أن جماعات من بني هلال قد استوطنت إقليم برقة أيام العبيديين ولها وقائع وحروب مع بعض القبائل المقيمة ببرقة من (لواته وزناته ومزاته). حيث بقي ذكر أن فروع هاتين القبيلتين بصفة عامة ليست كلها من سلالة بني هلال وبني سليم بل تضم سلالات بربرية مثل لواته ومزاته وزناته، التي سماها ابن خلدون والتي كانت تعمر هذه البقاع.

نعود إلى قصة التجريدة .. فالحروب بين الحرابى وأولاد علي في تلك الفترة ترجع كما يذكر بعض الباحثين إلى ثارات قديمة نشأت بين الفريقين وقد انتصر (الحرابى) على أولاد علي وطردوهم من الجبل الأخضر وأجلوهم إلى بقاع مقفرة ومناطق مجدبة في أكثر السنين، فأخذ هؤلاء يعدون العدة ويرتقبون الفرصة التي تمكنهم من استرجاع البقاع التي طردوا منها، والتي تجود بالخصب والنماء فلما تمت لهم الغلبة توغلوا حتى (رأس التراب) الواقع غربي (شحات) بنحو عشرة كيلومترات أي أنهم بسطوا نفوذهم على ما يقرب من نصف مساحة الجبل الأخضر زيادة على المناطق الشرقية الشاسعة.

وما فتئ (الحرابى) يقاومون سيطرة (أولاد علي) ويتربصون بهم الدوائر، وتقوم بين الفريقين مناوشات ومعارك وكثيراً ما يضطر (الحرابى) إلى الرضوخ والاستسلام بسبب تفرقهم ووقوف بعض قبائلهم موقف الحياد ثم ظهر رجل اجتمعت له صفات الزعامة بين قومه وعشيرته، ذلك هو الشيخ (عبد المولى الأبح) الذي تبوأ مكان الصدارة وأصبح صاحب الكلمة المسموعة والرأي المتبع عند أكثر قبائل (الحرابى) ومن أبناء (الشيخ عبد المولى) كان حبيب بطل التجريدة.

هذا وتجئ البوادر الأولى (لتجريدة حبيب) بذكر واقعة اقتحم فيها الحرابى منتجعاً لأولاد علي بالجبل الأخضر قبيل الفجر ذات يوم وقتلوا كل من سدت في وجهة المنافذ للهرب من الرجال وغنموا ماشيتهم ولم يبقى بالمنتجع غير عدد من الأطفال تبنى الشيخ (عبد المولى الأبح) أحدهم واسمه (النعيعيس) وجعله كواحد من أبنائه.

نشأ النعيعيس هذا، وشب في بيت (الشيخ عبد المولى) لكنه لم ينس ما حل بقومه وأهله من تشريد، إذ انه كان في سن المراهقة عند غارة (الحرابى) على منتجع

قبيلته، وأضمر في نفسه الانتقام وانتهز فرصة في يوم خلا فيه بأحد أبناء (الشيخ عبد المولى) فقتلـه، ووارى جثته في التراب وأخفى لباسه الملطخ بالدماء داخل برذعة حمار، ولم يخطر ببال الشيخ عبد المولى ولا احد من عشيرته أن النعيعيس يقتل أخاه، وفقد الأمل في العثور على ابن الشيخ عبد المولى فقد يكون ضل طريق عودته إلى المنتجع وتاه وسط الشعاب والوديان فافترسه ذئب أو ضبع غير أن الجريمة المدبرة ما لبثت أن ظهرت معالمها واضحة للعيان فقد بـرزت ملابس القتيل من خرق في البرذعة صدفة من غير قصد، وعرف الشيخ عبد المولى أن النعيعيس هو قاتل ابنه ولكنه لم يقتص منه وأبت له شهامته أن يسفك له دماً فقد تبناه وعاش فيحمايته، وإنما طلب منه أن يرحل بعيداً عن بيته ودياره، حتى لا يتعرض للقتل من قبل أحد أخوة القتيل أو من أبناء قبيلته.

غادر (النعيعيس) بيت (الشيخ عبد المولى الأبح) ونفسه لا تزال تحتدم غيظاً وحنقاً على الشيخ عبد المولى وعشيرته، لم يهدئ من ثائرتها قتله لابن الشيخ عبد المولى ولا شهامة أب القتيل في الصفح عنه وصمم في هذه المرة على الانتقام من الشيخ عبد المولى نفسه، إذ هو أكبر رؤوس (الحرابى) وصاحب الرأي والتدبير وبدأ في تنفيذ خطته بالاتفاق مع جماعة من شيوخ (أولاد علي) فوشوا بالشيخ عبد المولى عند حاكم درنة في ذلك الوقت (الذي لم يذكر رواة التجريدة اسمه ولا أصله ويجوز أن يكون تركياً من بقايا حكام العهد العثماني الأول) وهو بدوره استدعى الشيخ عبد المولى وقبض عليه وسجنه مكبلاً بالحديد بجوار سور المدينة، وتقول الرواية أن ولدين من أبناء الشيخ عبد المولى تمكنا من إنقاذ والدهما إذ حفرا نفقاً سرياً نفذا منه إلى السجن ووجدا أباهما في ثقل من الحديد لم يستطيعا نزعه، فاحضرا ثلاثة من الخيل وحملا أباهما على احديهما ووضعا أحد ثقلي الحديد على حصان عن يمينه والثقل الأخر على حصان عن يساره وتسلل الجميع لائذين بالفرار.

غير أن نبأ فرارهم انكشف قد انكشف، وخرج القوم وفي مقدمتهم (النعيعيس) يقتفون أثرهم، وما لبثوا أن لاحت لهم ثلاثة من الخيل، تجد في سيرها غربي مدينة درنة فلحقوا بهم مسرعين.

ولما علم الشيخ عبد المولى أن القوم سيدركونه لا محالة، طلب من ولديه أن ينزلاه ويخفياه بين أشجار الغابة، ويفرا من وجوه اللاحقين، ولاحظ النعيعيس سرعة انطلاق الخيل المفاجئة، فأخبر الجماعة بأن الخيل قد ألقت الحمل الذي كانت تحمله، وأن الحمل الملقى هو الشيخ عبد المولى بثقل قيوده، وانطلقت الجماعة تبحث عن الشيخ عبد المولى، وعندما رأي الشيخ عبد المولى النعيعيس أطمأن إليه وناداه معتقداً أنه سيرعى الجميل، ويجزي الإحسان بالإحسان، ولكن النعيعيس حين سمع نداء الشيخ عبد المولى ورآه مكبلاً بالحديد صاح في الجماعة أن يأخذوه أسيراً إلى قصر الحاكم بدرنة، وما أن أحضر الشيخ عبد المولى أمام الحاكم حتى أمر بقتله في الحال، فقطعت رأسه ونصبت أمام القصر عدة أيام، ثم أعيدت إلى الجثة التي دفنت بجانب سور المدينة كما تذكر الرواية.

وقد كان لمقتل (الشيخ عبد المولى) أثره البالغ في نفوس (الحرابى) إذ فقدوا بموته أعظم شيوخهم نفوذاً ورأياً وشهامة.

وتمضي الرواية قائلة : وكان من بين أبناء (الشيخ عبد المولى) ابن اسمه (حبيب) نشأ لصاً فاتكاً، يسطو على المواشي ويعترض طريق المارة، غير أنه حين سمع نعي أبيه فكر في مصيره، وأيقن أن الأعداء سيقتلونه لا محالة، ومن هنا أقلع عن مسلكه الخاطئ، ليسلك طريق الجد، ويتأهب للثأر لأبيه ولكرامة قومه وعشيرته.
وسمع عنه شيوخ (أولاد علي) فبعثوا جماعة من الفرسان يتعقبونه، ليقتلوه ويأتمنوا جانبه، ولما علم (حبيب) بقدومهم، وإنهم جادون في البحث عنه، اتخذ لنفسه مكاناً قذراً متظاهراً بالجنون والبله، وحين عثروا عليه عرفوه ولكنهم استقذروا منه، ولما سلموا عليه لم يرد السلام ولم يأبه بهم، بل بقي جالساً في مكانه، يأكل العشب بين الأقذار، فقال بعضهم لبعض، إن هذا أبله وعيب أن يقال عنا إن قتلنا شخصاً معتوهاً وتركوه جالساً في مكانه، وقفلوا راجعين.
وبدأ حبيب يفكر في تدبير وسيلة للأخذ بثأر أبيه، ورفع الظلم عن قومه فالتجأ إلى أحد أصدقاء والده، الذي يدعى الشيخ (يونس القرّي) شيخ قبيلة (العوامّة) في ذلك الوقت، يستشيره ويسترشد برأيه، فأشار عليه الشيخ (يونس القري) أن يسافر إلى حاكم طرابلس، ويشكو إليه ما حل بقومه من ضيم واضطهاد، وأن يلتمس منه مساندته في دفع الظلم عن أهله وعشيرته، وأعطاه قدراً كبيراً من الذهب، يستعين به على تحقيق هذا الغرض.
سافر حبيب قاصدا طرابلس وهي رحلة طويلة وشاقة محفوفة بالمخاطر، ويفهم من الرواية أن (حبيب) سافر في رحلته إلى طرابلس ممتطياً فرسه، ولكن يبعد أن يسلك تلك القفار الشاسعة وحده، ويطوي تلك الصحراء التي يظل فيها القطا من غير زار ولا دليل، ولابد أنه سافر في رفقة أحدى القوافل، التي كانت تسلك الصحراء الغربية للتجارة.
ومرّ حبيب في طريق سفره بمدينة (بنغازي)، وتقول الرواية : أنه لما وصل لبنغازي احتاج إلى نعل لفرسه، ومكث يومين يتردد على أحد الحدادين هناك، يجيء في الصباح ويظل واقفاً حتى الظهيرة، وحين سأله الحداد عن حاجته أجابه : بأن فرسه حافية وليس لديه نقود يدفعها ثمناً لتنعيلها وسخر منه الحداد وقال متهكماً : أتريد تنعيلاً كاملاً أم نصف تنعيل ؟ ولكن حبيب رد عليه ببيتين من الشعر الشعبي شاكراً حسن صنيعه مادحاً سعة جوده وكرمه فقال :

بالصدر مانقرضوك وبالقفل نمشي رضايا

انت كيف معطن العد اللي يجوك يمشوا روايا

(الصدر هو مقدم النعل وفي اصطلاح الليبيين هو نعل الرجلين الأماميتين للخيل، والقفل هو نعل أرجلها الأربعة .. ومعطن العد هو البئر الذي له مادة جارية .. فيقول حبيب : لا نذمك بصنع الصدر وبالقفل نرجع راضيين، وأنت مثل بئر غزيرة الماء يرتوي منها كل وارد .. فقد شبهه بالبئر الغزيرة الماء في الجود والعطاء).
فأثار المدح النخوة في نفس الحداد، ونعل له فرسه بدون ثمن، واستأنف حبيب سفره حتى بلغ مدينة (طرابلس) وهناك حضر أمام حاكمها واسمه (محمود) كما تقول الرواية، وشرح له ما جرى له ولقومه وانشده بيتين من الشعر هما :

نا بوي يا بي محمود مقتول ظلم ما له جناية

مير وطن لكم محسود .. دلوه ناساً رعايا

(يقول أن أبي يا محمود بي قتل ظلما من غير ذنب جناه، أنه أمير في وطنه وبين قومه ولكنه كان محسوداً تواطأ على قتله أناس رعاع).
فرق له حاكم طرابلس ووعده بنصرته وأهدى له (خاتم المشيخة) وهي من التقاليد التي كان يتبعها الحكام والولاة في تعيين شيخ لقبيلة أو رئيس أو زعيم استماله لجانبه ومصانعة لقومه وعشيرته أو يمنحوه برنساً من الجوخ (الملف) يسمى (برنوس الشوخة) أو يعطونه ختماً يسمى (طابع الشوخة)، ومن الأهازيج الشعبية التي كان يرددها ويتغنى بها الناس في تمجيد قبائلهم وعشائرهم :

والشوخة والطابع لنا ساس عقرّ نحنا مازلنا

(ومعناه السيادة لنا واطبعها ونحن لا زلنا ركناً متيناً).
وخيّر (محمود بي) حبيباً أن تكون النجدة بحرية أو برية فاختار حبيب الثانية وجهز له حاكم طرابلس جيشاً كبيراً معظم رجاله من أبناء (تاجوراء ومصراته وزليتن).
نهض الجيش وفي مقدمته (حبيب) متجهاً نحو الشق الشرقي يطوي المسافات ويجتاز الصحراء، لما أصبح على مسافة غير بعيدة من المكان المقصود بادر (حبيب) وسبق الجيش إلى مضارب (أولاد علي) بالجبل الأخضر وتسلل متنكراً في زي سائل يستجدي الإحسان ويطوف البيوت حتى وصل إلى بيت الشيخ (يونس القرّي) صديق والده وتعارف الاثنان، وبالغ حبيب في إخفاء شخصه خوفاً على الشيخ يونس القرّي أن يلحقه أذى ودار بين الاثنين حوار في أبيات من الشعر "وهذا الحديث مذكور في (السبك الحديث في تاريخ برقة القديم) تأليف الشيخ السنوسي محمد الغزالي وقد دارت بينهما محاورة شعرية فيما يتطلبه من الاحتياط ورسم الخطة السليمة لتنفيذ الهجوم" حيث حددا الوقت والمكان المناسبين لهجوم الجيش القادم وغادر (الشيخ يونس القرّي) مضارب (أولاد علي) بأهله وإبله قبل حلول موعد الهجوم وما أن حلت الليلة الموعودة حتى كان جيش النجدة (التجريدة) على أهبة الغارة والهجوم فلم يشعر القوم إلا بسنابك الخيل تقتحم منتجعاتهم قبل طلوع الفجر وعجزوا عن المقاومة ولم يجدوا وسيلة إلا للفرار وتوسطت خيول الجيش المهاجم جموع (أولاد علي) تقتل وتأسر من انسد في وجوههم طريق الخلاص وتلاحق الفارين وبذلك تم إجلاء قبائل (أولاد علي) عن جميع ما استولوا عليه من ارض وديار وتقهقروا إلى ما وراء العقبة الكبرى (حجاج السلوم) غير شراذم قليلة اعتصمت ببعض الجهات القصية.
لم يبق أمام حبيب بعد هذه الهزيمة الساحقة التي لحقت بأعدائه إلا أمنية واحدة هي العثور على (النعيعيس) حياً أو ميتاً وقد وعد من ياتيه بإنه سيصبح شيخ قبائل (الحرابى) فكان الحائز على هذا الشرف هو (غيث) أخو (حبيب) الذي تمكن من قتل (النعيعيس) وحز رأسه وحمله في مخلاة فرسه وحين رمى به أمام أخيه

(حبيب) قام هذا وعانقه وقدم إليه (ختم المشيخة) الذي جاء به من (طرابلس) وبذلك انحصرت المشيخة في (غيث) وذريته من بعده، كما يقول رواة التجريدة.
أما رجال النجدة من أبناء (تاجوراء ومصراته وزليتن) فتذكر الرواية أن شيوخهم ورؤسائهم طلبوا من (حبيب) بعد هزيمة (أولاد علي) وإجلائهم عن هذه البقاع أن يمنحهم مدينة (درنة) تكون لهم سكناً ومستقراً، ولبى (حبيب) طلبهم وزادهم أراض مجاورة لموقع المدينة عينها لهم وعقد مجلساً ضم زعماء الجانبين وحرروا وثيقة على رق (جلد الغزال) وعينوا فيها الحدود والجهات التي تنتمي إليها ملكيتهم لهذه النواحي.
استوطن أبناء (تاجوراء ومصراته وزليتن) مدينة (درنة) واستقدموا إليها أسرهم وعائلاتهم واستقروا بجانب إخوانهم من (العائلات الأندلسية)وغيرهم ممن سبقهم على الاستقرار بهذه المدينة وبذلك ازداد عدد سكان مدينة درنة وازداد عمرانها كما كثرت حدائق فواكهها واتسعت مساحات حقولها حتى إن بعض القادمين الجدد قد اتخذوا (السواني) المسماة عندا (بئر الجبّاد) لري الأراضي التي استصلحوها وهي وسائل إلي المعروفة عندهم والتي لا تزال باقية نراها في كثير من حقول الزراعة في الشق الغربي.

درنة في العهد القرماني

"نسبة إلى قرمان، اسم مقاطعة بالاناضول بتركيا آسيا والنسبة إليها (قرمانلي) وبالتركية قرماني أو قرمنلي".
بدأ حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا منذ سنة 1123هـ - 1711م وحين تمكن (أحمد باشا) المؤسس الأول لحكم هذه الأسرة من تثبيت أقدامه في الإقليم الغربي طرابلس ونواحيها اتجه إلى إقليم برقة ليضمه إلى حكمه ويضعه في دائرة سلطته ونفوذه، ففي سنة 1123هـ - 1719م عقد لأخيه الحاج (شعبان بك) على هذه النواحي وجهز له كتيبة رجالها من (الكيجرية) (الأنكشارية) يرأسها ضابطان احدهما اسمه (إبراهيم التركي) والثاني (علي الأدغم) لإخضاع بنغازي والجبل الأخضر ودرنة إلى حكمه وإلزام سكانها وسكان الأطراف بدفع الميري (الضرائب).
وقد نجحت هذه الكتيبة أو الحملة في تحقيق مهمتها، غير أن (إبراهيم الترياكي) كان طموحاً إلى الحكم والولاية فتواطأ مع صاحبه (على الأدغم) أثناء وجودهما بمدينة درنة على مناوأة الحاج (شعبان بك) بحجة سوء تصرفه.
وذهب الطموح بـ (إبراهيم الترياكي) إلى التآمر على (احمد باشا القرمانلي) نفسه والإطاحة بحكمه، ووافقه على ذلك صاحبه (على الأدغم) والجند أيضاً وخرج الاثنان على رأس الجند (الإنكشارية) من مدينة درنة قاصدين طرابلس يدعون من يمرون بهم من أبناء القبائل إلى الانضواء تحت لوائهم فأنحاز إلى جانبهم عدد كبير من الرجال طوعاً وكرهاً، وواصلو زحفهم حتى استولوا على (قصر حمد) بمدينة (مصراته) ونهبوا كل ما فيها من سلاح وذخيرة واستأنفوا غزوهم إلى تاجوراء ولكن نبا عصيانهم قو وصلت إلى احمد باشا فجهز جيشاً كبيراً لسحق هؤلاء العصاة

والتقى الفريقان بإطراف (تاجوراء) ودارت بينهما معركة ضارية أسفرت عن هزيمة (إبراهيم الترياكي وعلي الأدغم) وتشتيت أعوانهما أما الأول فقد هرب متوغلاً في جوف الصحراء هائماً على وجهه حيث مات تائهاً شريداً وأمل الثاني فقد فر لاجئاً إلى مصر طلباً للنجدة.
وقد استتب الحكم (لأحمد باشا القرمانلي) منذ دأب على إخضاع المعارضين والثائرين عليه من سكان النواحي والقرى والأطراف، وفي الواقع أن الولاة القرمانليين وإن استقلوا عن الدولة العثمانية ، فقد انتهجوا نفس الأسلوب الذي انتهجه الولاة العثمانيين وخاصة في فرض الضرائب وقمع الثورات الداخلية إلا أن العهد القرمانلي امتاز بإعداد أسطول بحري يدفع عدوان القراصنة، ويفرض الضرائب والإتاوات على السفن العابرة لشواطئ طرابلس وما يجاورها وقد شمل فرض هذه الضرائب والإتاوات سفن (الولايات المتحدة)وخاصة في عهد (يوسف باشا القرمانلي) حين أصبح أسطوله خطراً يهدد سفنها في حوض البحر المتوسط.
ويقترن هذه العهد أو هذه الفترة بحدث كبير سجل في التاريخ باسم (الحملة الأمريكية) التي كان ميدانها مدينة درنة.
ويدعو البحث قبل سرد أحداث هذه الحملة على ذكر شخصية، قيل عنها إنها من مدينة درنة وكان لها دور بطولي في الجهاد، بجانب الأشقاء من أهل (مصر) ومقاومة غزو الفرنسيين لأرضهم وديارهم بقيادة (نابليون بونابرت) سنة 1213هـ - 1798م وقد سجل هذا الغزو هو الآخر في التاريخ باسم (الحملة الفرنسية).
ذكر الأستاذ مصطفى عبد الله بعيو في بحث بعنوان (بعض ملامح تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر) الذي اشترك به في المؤتمر التاريخي المنعقد في الجامعة الليبية في شهر مارس سنة 1968م قال في معرض هذا البحث ما نصه :
"وإذا عرفنا أن المقاومة العنيفة التي وجدها نابليون في زحفه إلى القاهرة، بعد أن تم له الاستيلاء على الإسكندرية، كان من عوامل اشتداد تلك النجدة التي أرسلها أهالي ليبيا برئاسة رجل من أهالي درنة استطاع أن يثير حماس المشتركين في المعركة ضد قوات نابليون الزاحفة بعد أن أعلن انه المهدي المنتظر، وانه جاء لتخليص مصر من الغزاة الفاتحين..".

6. درنة في العهد العثماني الثاني :

بدأ نفوذ الأسرة القرمانلية يتقلص ظله عن ليبيا منذ السنوات الأولى من حكم (يوسف باشا القرمانلي) حتى اختفى في سنة 1251هـ - 1835م وعادت ليبيا (إيالة) عثمانية مرة أخرى، وقسمت (إيالة طرابلس الغرب) إلى أربع (قائمقاميات) وأصبحت (درنة) ضمن قائمقامية (بنغازي) التي ترتبط بـ (اسطنبول) رأساً فيما عدا المسائل البريدية والجمركية والعدلية (القضائية).
ونسجل أهم الأحداث التي وقعت في هذا العهد :

قدوم عشرين مركباً شراعياً تحمل جماعة من عائلة (خضرة) فرع من قبيلة (البراعصة) إلى مدينة درنة ونزلوا ضيوفاً على الشيخ (احمد سالم بن علي) من عائلة (بن علي) من أعيان درنة في تلك الفترة فأكرم نزلهم وأقاموا في ضيافته عشرين يوماً وكان ذلك في حدود سنة 1258هـ، 1842م. ولمجيء هذه الجامعة قصة خلاصتها أن نزاعاً شب بين فرعين من قبيلة (البراعصة) وهما (أولاد خضرة) و(أولاد امغيربية) وقد تغلب هؤلاء على إخوانهم (أولاد خضرة) واضطروهم إلى الجلاء عن أرضهم فلجئوا إلى الديار المصرية، ثم بعد حين من الزمن عزموا على العودة إلى أرضهم وديارهم بالجبل الأخضر، ولما علم بمجيئهم إلى درنة (الشيخ بوبكر بوحدوث) عمدة قبيلة البراعصة في ذلك الوقت أوجس منهم خيفة وخشي أن يستعينوا بمناوئيه ومنافسيه، فصمم على الاستعداد لمواجهتهم والحيلولة دون وصولهم إلى هدفهم، لكن السيد (محمد بن علي السنوسي) الذي كان مقيماً بالجبل الأخضر طمأنه مؤكداً له أنهم سيعودون من حيث أتوا، وحدث ما توقعه فقد عدل (أولاد خضرة) عن قصدهم، وركبوا مراكبهم وقفلوا راجعين.

قدوم أسر من جزيرة (كريت) الذين هاجروا من بلادهم، ولجاؤا إلى البلاد والولايات العثمانية فراراً من الاضطهاد والقتل والتعذيب واستوطنت جماعات منهم في (بنغازي وسوسه ودرنة وطبرق) بمساعدة السلطات العثمانية، واستقر بهم المقام في جوار إخوانهم من العرب والمسلمين، بالإضافة إلى هذه الأسر من إخواننا (الكريتليين) فقد قدمت جماعة من مسلمي (ألبانيا) (الارناؤوط) وكانوا هم الآخرون قد جاءوا لاجئين مما حل ببلادهم من فتن وثورات، وسماهم أهل درنة (المهاجرية) لكونهم جاءوا مهاجرين ولكنهم لم يمكثوا بمدينة درنة إلا بضع سنين، عادوا بعدها إلى وطنهم، وبقي منهم قليل من الرجال والنساء يعدون على الأصابع وقد استغلوا بمدينة (درنة) بالزراعة، وهم أول من نشر (البطاطس) بهذه المدينة وكانوا ذوي عفة ونشاط ويتحلون بأخلاق إسلامية عالية.

7. الغزو الإيطالي :

كانت مدينة درنة في مقدمة المدن الساحلية التي قصفتها مدافع الأسطول الإيطالي بعد أن وجهت إيطاليا إنذارها الحربي إلى (الباب العالي.. أي إلى الدولة العثمانية) وشنت عدوانها الغادر على مدن ليبيا الساحلية العزلاء فهاجمت سفن أسطولها (طبرق) و (طرابلس) في (أوائل شهر أكتوبر من سنة 1911م - شوال 1329هـ) ولقد كان عدد من جنود الحامية التركية بمدينة درنة لا يزيد عن 100 جندي تحت إمرة ضابط تركي اسمه (نجيب نادر بك) وكان هو حاكم المدينة في الوقت نفسه، ورتبته (بنباشي) وليس لديه من العدة والسلاح غير مخزن قليل للبارود، ومجموعة من البنادق، وكان المدينة خالية من (بطاريات) المدافع لموجهة أي غزو بحري، اللهم إلا مدفعين من طراز قديم لا يصلحان للدفاع.

هذا ولقد كان جنود الحامية التركية واعيان المدينة يتوقعون هجوم الأسطول الإيطالي على درنة من يوم على يوم بعد أن سمعوا بعدوانه على طرابلس وطبرق، وقد حدثني شاهد عيان ممن اشتركوا في المقاومة والدفاع أبان الغزو الإيطالي، أن أعيان المدينة كانوا على أهبة الاستعداد لمقاومة العدوان، وقد بادروا بحفر خنادق قرب شاطئ البحر، واتفقوا على أن يرابط سكان الضفة الغربية في الجانب الغربي من المدينة وسكان الضفة الشرقية في الجانب الشرقي، ليحولوا دون نزول جيش العدو إلى الشاطئ، وما هي إلا أيام معدودات، وإذ بقافلة من سفن الأسطول المتعجرف تظهر في الأفق، وكان ذلك في اليوم (السادس عشر من شهر أكتوبر سنة 1911م، الموافق لليوم الثالث والعشرين من شهر شوال سنة 1329هـ، وكانت سفن الأسطول تتألف من تسع وعشرين قطعة ما بين ناقلات جند وبوارج وطرادات حربية، وقد بدأت تقترب من الشاطئ، وتتخذ مواقعها في مواجهة المدينة من الشرق والغرب، متأهبة للقصف والتدمير.

وحدثني شاهد عيان أيضاً أن سفن الأسطول الإيطالي لما رست بشاطئ درنة قدم منها ضابط كبير في زورق حربي (الأميرال بروسبيرو وهو قائد سفن الأسطول الحربي الإيطالي الموجه لاحتلال المدن الساحلية في إقليم برقة)، وقابل آمر الحامية التركية (نجيب نادر بك) مع بعض أعيان المدينة، وعرض عليهم الاستسلام بحجة المحافظة على المباني والأهالي، وانه مستعد لنقل جنود الحامية إلى مدينة (اسطنبول) على ظهر إحدى السفن، وهدد بأنه سيأمر بقصف المدينة إذا لم يستجيبوا لطلبه، ولكن آمر الحامية رفض رفضاً قاطعاً، وقد بدت على وجهه علامات الغضب الشديد لتهديد الضابط الإيطالي بقصف المدينة.

عاد الضابط الإيطالي إلى مقر قيادته بالأسطولٍ المحاصر لشواطئ درنة لينفذ ما هدد به من قصف وتدميرها، وبعد عصر ذلك اليوم (الاثنين 23 شوال 1329هـ - 16 أكتوبر 1911م) بدأت القذائف تنطلق من فوهات مدافع البوارج المصوبة نحو مدينة درنة الآمنة الرابضة بحقولها وحدائقها ومبانيها المتواضعة المطلة بنخلها الباسقات، تطوق أعناقها عراجين من بلح مختلف ألوانه مابين مصفر ومحمر وهو موسم نضوج البلح والرطب في المدينة.

وكان أول ما استهدفته تلك القذائف، أعمدة اللاسلكي المقامة قرب الشاطئ، والتي أقيمت بهذه المدينة أواخر العهد العثماني الثاني، وثكنة الحامية التركية (الكشلة) ومبنى الجمرك، وبعض بنايات أخرى، مجاورة للشاطئ، اعتقد الغزاة أنها مواقع استحكامات مقامة للدفاع، ثم توالى القصف بقية اليوم، حتى الساعة الحادية عشر ليلاً.

وفي صباح اليوم التالي أصدر (بريسبتيرو) أوامره بإنزال فرقة من جنود البحرية لاستكشاف مواقع الدفاع والمقاومة، كما أمر بإعداد الزوارق لإنزال الدفعة الأولى من جنود المدفعية والمشاة مع استئناف القصف، وقد تعرقلت عملية الاستيلاء على المدينة بعض الوقت بسبب الجو العاصف والبحر الهائج، مما اضطرت كثير من السفن إلى الابتعاد عن مواقع رسوها حتى لا تدفعها الرياح الهوجاء إلى الاصطدام بصخور الشاطئ.

ونعود للحامية التركية ورجال المقاومة من أهل المدينة فنجدهم قد اتخذوا أماكنهم وسط الخنادق التي أقيمت بالضفتين الشرقية والغربية قرب الشاطئ لمواجهة الغزاة، وبدءوا يصوبون رصاص بنادقهم نحو بعض زوارق الاستكشاف، حين لاحت لهم في عرض البحر، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود طويلاً أمام قذائف المدافع المتوالية، فاضطروا إلى مغادرة مواقع دفاعهم ليتخذوا لهم مواقع أخرى بعيدة عن تساقط القذائف، أما بقية السكان من الشيوخ والنساء والأطفال فقد بادروا منذ بداية القصف بمغادرة بيوتهم وبساتينهم، فراراً من نيران القذائف لائذين بالكهوف والمغارات بأعلى الوادي وغلى أطراف المدينة.

وقد رأى جماعة من أعيان المدينة أن الموقف يستدعي المفاوضة، حفاظاً على المدينة من دمار محقق وخراب شامل، إذا ما استمر قصفها، فاستقر رأيهم على أن ينتدبوا وفداً لمفاوضة قائد الأسطول الإيطالي.

وتقول الرواية المحلية أن أعضاء الوفد ركبوا في احد القوارب رافعين العلم الأبيض، وقابلوا قائد الأسطول الإيطالي وتفاوضوا معه على أن ينزل الجيش إلى المدينة بشرط أن يأمن السكان على ممتلكاتهم وأعراضهم، وألا يجبر أحد منهم على التجنيد، والوقع أن هذه المفاوضة لم تكن غير اتفاق وقتي وشكلي، ليست له صيغة الاتفاق الرسمي، ولم تحرر وثيقة يوقع فيها الطرفان.

وفي ذلك اليوم المشئوم (الثلاثاء 24 شوال 1329هـ - 17 أكتوبر1911م) بدأت القوارب المشحونة بجنود الاحتلال تتدفق على شواطئ درنة من الناحية الشمالية، وكان هناك رصيف صغير أقامه العثمانيون لترسو المراكب والقوارب وقد كمن مجموعة من المقاومين لزوارق الإنزال الأولى، وصوبوا نحوها رصاص بنادقهم غير أن بوارج الأسطول، وقد حاصرت المدينة من جميع الجهات كانت توجه قذائفها إلى كل بقعة ينطلق منها رصاص المجاهدين مما جعل المقاومة ضرباً من المحال.

يقول الذين شاهدوا الإنزال : أن الفوج الأول من جنود الاحتلال قد اتجهوا فور نزولهم إلى قصر الحاكم التركي، الذي كان خالياً ورفعوا فوق سطحه العلم الإيطالي، ثم تتابع نزول الجنود بكل أسلحتهم ومعداتهم إلى الشاطئ، يقيمون الاستحكامات وينصبون الخيام في الحقول المجاورة لشاطئ البحر، ويستولون على الأماكن التي أرادوا أن يتخذوها مراكز ومعسكرات، وقد أصدر الحاكم العسكري منشوراً يقضي بأن الجيش الإيطالي سيستولي على كل حقل وبستان تركه صاحبه، كما أمر منادياً ينادي بوجوب استبدال العملية التركية بعملة إيطالية.

وكان الغرض من هذا كله هو إرغام السكان على العودة إلى منازلهم وحقولهم وبساتينهم والحيلولة بينهم وبين اتصالهم بمراكز المقاومة والجهاد.

وما أن اكتمل احتلال المدينة حتى انطلقت فرق من العساكر الإيطاليين يجوبون الأزقة والطرقات ويخترقون الحقول والبساتين ويقتحمون المنازل، بحثاً عن السلاح والذخيرة، وكانوا لا يتورعون عن إخراج النساء والأطفال والشيوخ وإيقافهم صفاً واحداً ثم يدخلون الحجرات ومخازن الغلال، ويبعثرون الأثاث والمتاع ويكسرون أقفال الصناديق المقفلة، بدعوى وجود السلاح أو ذخيرة بداخلها، وهم في الواقع

يقصدون السلب والنهب فيسطون على الحلي والنقود وما يعجبهم من أدوات ومقتنيات، ولكي يزيدوا من إرهاب سكان المدينة، نصبوا مشنقة قريباً من البحر في المكان المسمى (سيدي ابحيري) الذي نزلت به فرقة من الفوج الأول من الغزاة المحتلين.

وكان أول من حكم عليه بالإعدام من سكان مدينة درنة ثلاثة رجال اتهموا بإخفاء بنادق وذخيرة عن السلطات الإيطالية، ويقص علينا المعمرون قصة القبض عليهم فيذكرون أن الأول هو المرحوم (موسى بوشرتيلة) قبضت عليه دورية إيطالية وهو يحاول إخفاء بنادق داخل حقله وأما الثاني فاسمه (السيوي بن اسماعيل) أبصرته الدورية صاعداً جذع نخلة بأحد البساتين المجاورة فاتهمته بأنه يحرس الأول أثناء محاولة إخفاء السلاح، وأما الثالث فهو سوداني قبضت عليه الدورية مقيماً بجانب المتهم الأول فاتهم هو الآخر بأنه متواطئ معه على حيازة السلاح وإخفائه.

وأصدر الحاكم العسكري الحكم على كل من (موسى بوشرتيله) والسوداني بالإعدام شنقاً وبرأ ساحة الثالث (السيوي) وقد نفذ الحكم في الاثنين، وبقيت جثتيهما معلقتين عدة أيام إمعاناً في التنكيل، وزيادة في الإرهاب.

كما أن سلطات الجيش الإيطالي قبضت على عدد كبير من أهل المدينة وخاصة من الأعيان واعتقلتهم داخل قصر الحاكم التركي سابقاً وكانت تخرجهم كل يوم لحمل الحجارة وردم الحفر وإقامة الممرات التي يحتاج إليه الجيش الإيطالي، كما كانت مجموعة منهم تجبر على تنظيف إسطبلات الخيل والبغال، مما جعل الكثير ممن عادوا على بيوتهم وحقولهم إلى الهروب إلى ظاهر المدينة فراراً من التعسف والظلم والاستهتار بكرامة العزل الآمنين.

وننتقل إلى مراكز المقاومة والجهاد حيث بدأ المجاهدون من سكان المدينة بجانب جنود الحامية التركية ينظمون أول معسكرات لمواجهة الغزاة المحتلين وجاءت نجدة المجاهدين من سكان الأطراف ومن الجبل الأخضر ومن شيوخ الزوايا متدفقة إلى معسكرات الجهاد والدفاع استجابة إلى النداء الذي وجهه المجاهد الكبير السيد (أحمد الشريف)، وقد أوفد الباب العالي عدداً من كبار الضباط ليدربوا أبناء الوطن على حمل السلاح والنظم العسكرية، وكان من أبرز هؤلاء الضباط (أنور باشا الذي كان في مقدمة الضباط الأتراك الذي كان في مقدمة الضباط الأتراك الذين قدموا إلى ليبيا لتنظيم صفوف المقاومة والدفاع والمساهمة في معارك الجهاد ضد الغزاة الإيطاليين وقد وصل إلى معسكر المجاهدين في مدينة درنة عقب معركة (يوم الرحيل) ووقف بجانب المجاهدين قائداً وخبيراً وبطلاً مناضلاً، حتى تم استدعاؤه لمواصلة الجهاد في حرب البلقان وقد استشهد في بلدة تسمى (بالجوان) شرقي (بخارى) يوم 11 ذي الحجة 1340هـ - 4 أغسطس 1922م).

ومن أهم المعارك التي دارت رحاها حول مدينة درنة :

1. **معركة (يوم الرحيل) :** يوم 28 أكتوبر 1911م - 5 من ذي القعدة 1329هـ.
2. **معركة (يوم الزبط) :** آخر شهر ديسمبر 1911م - أوائل شهر محرم 1330هـ.

3. **معركة (يوم الرباط) :** يرجح إنها في 21 ديسمبر1911م - آخر ذي الحجة 1330هـ.
4. **معركة (سيدي عبد الله) :** أواخر يناير 1912م - منتصف صفر 1330هـ.
5. **معركة (يوم القرقف) (رأس اللبن)** : 17 سبتمبر 1912م - 5 شوال 1930هـ.
6. **معركة (يوم تمسكت) :** والثأر لشهداء يوم القرقف.
7. **معركة (يوم الجمعة) (سيدي كريم القرباع) :** وهي بعد معاهدة اوشي لوزان، الجمعة 19 جمادى الآخرة 1331هـ - 16 مايو 1913م.
8. **معركة (المقر والطنجي) :** 17 يونيو 1913م - 12 رجب 1331هـ.

حقيقة للتاريخ والواقع :

كانت المدن وخاصة المدن الساحلية هي الهدف الأول للغزو الإيطالي ولم تستطع أن تصمد طويلاً أمام قذائف الأساطيل وجحافل الجيوش المهاجمة بما يصحبها من قوة وعتاد وقد أتخذها العدو قواعد ومراكز لعساكره ومعداته،فكان من الطبيعي أن تتحول معارك القتال إلى الأطراف والدواخل ومع ذلك فقد ظلت هذه المدن على صلة بالمجاهدين والمقاومين تمدهم بنصيب غير قليل من المؤن والذخيرة بشتى وسائل التهريب فضلاً عن أن جماعات من أهل المدن قد خرجوا من مساكنهم وغادروا ممتلكاتهم وتطوعوا للقتال في جانب إخوانهم في ميادين القتال ومعسكرات الجهاد (الأدوار).

وهاهو الشاعر الشعبي المرحوم (سالم امحمد الفليليح) .. وهو من أبرز شعراء درنة الشعبيين ويمتاز شعره بالجزالة والنقد اللاذع، كما كان رحمه الله شيخاً لزاوية بن عيسى بمحلة البلاد، توفي في شهر جمادى الأولى 1370هـ - آخر فبراير 1951م)، يحي المجاهدين ويشيد ببطولتهم ودحرهم لجيش العدو في كثير من البقاع معتذراً عن عجز كثير من أبناء مدينة درنة عن المقاومة والدفاع نظراً لما يحيط بهم من قوات وأساطيل لا يملكون لها دفعاً، داعياً للدولة العثمانية بالعزة والنصر لما تبديه من عطف على أبناء ليبيا أيام محنتهم وكفاحهم مع صبرهم على جور العدو وطغيانه متوسلاً إلى الله أن يخلص البلاد فيخرجوا منها خائبين خاسرين وقال :

حيا الله الجبل واخوانا ... تلقو العدو وقلوبهم فرحانا
كسرو جيشه نكسو صلبانه ... وقتاً عليهم حام بالطيارا
الله لا يهينا جيشها السعادي ... يدعس عليهم كالصيد العادي
خلاهم في (بجيد والظهر والوادي) ... اتقول في علم متملصا جزارا
بوعقل فيكم ما يلوم علينا ... تبقى النساء بعيالها تذارا
على الله يرجع حكها دولتنا ... علينا حنونا أو عارفا غايتنا
كيف اليتامى والغرب خلتنا ... أما نرقدو بطولة الليل سمارا
الطليان حتى إن كان دال علينا ... روس العرب للكاينا صبارا
على فراقها مدة العمر حزانا ... والطليان والمنتصرا فرحانا
أمن ظلمهم نضرعو لمولانا ... وقلوبنا ملايا غيظ غير موارا
ابحرمت نبينا وجوارا ... على الله ايعادو خاربات ديارا

وقد شرعت سلطات الاحتلال في بناء الحائط الصخري (السور) بعد السنوات الأولى من احتلال المدينة ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلاث أمتار وطوله حوالي ثلاثة كيلومترات وبه عدة فتحات صغيرة للمراقبة وأربعة أبواب لكل باب قلعة صغيرة يقيم بها الحراس (الكارابينيري) يراقبون كل داخل وخارج وقد بالغوا في الحراسة والرقابة فكانوا يفحصون جميع أمتعة الخارجين من أبواب السور والقادمين من خارجه حتى ثيابهم وأحزمتهم ولكن ذلك كله لم يحل دون تهريب المؤن والذخيرة إلى المجاهدين الرابضين في معاقلهم.
ومما يجدر ذكره أن مدينة درنة هي الوحيدة التي أحاطتها سلطات الاحتلال الإيطالي بسور حاجز دون سائر المدن الليبية مما يدل على صلتها الوثيقة بالمجاهدين ومعسكرات الجهاد.

8. أحداث تشهدها مدينة درنة في عشر سنوات (قبل الحرب العالمية الثانية)

في سنة 1350هـ -1931م شهد سكان مدينة درنة لأول مرة في تاريخ التمثيل العربي بليبيا رواية (هارون الرشيد وخليفة الصياد) على مسرح (بيرينتي Parinatti) الإيطالي الذي كان مقره بشارع البساتين المتفرع من شارع الحرية الآن وقد مثلتها فرقة (هواة التمثيل الدرناوية) "وقد أنشأ الإيطاليون أول مسرح بمدينة درنة بعد الأحتلال بنحو سبع أو ثمان سنوات وسموه (تياتروفيردي Teatroverdi".
وفي سنة 1352هـ - 1933م تكون بمدينة درنة لأول مرة أيضاً في تاريخ الرياضة فريقان لكرة القدم من أبناء درنة العرب سمي أحداهما (دارنس) والآخر (اسبيريا) وبدأ أعضاؤها يتدربون على لعبة كرة القدم وإجراء مباريات بين الفريقين ثم انتخب من أعضاء هذين الفريقين فريق واحد باسم (اتحاد درنة) وقد تباري في السنة التالية مع فريق كرة القدم الإيطالي بالمدينة وفاز عليه، غير أن هذا الفوز كان السبب في إلغاء الفريق العربي لكرة القدم بمدينة درنة وإيقاف نشاطه إلى سنة 1935م - 1354هـ.
ومن أحداث هذه السنة زيارة ملك إيطاليا (فيتوريو إيمابولي الثالث) لمدينة درنة ثم تلاها في السنة التالية زيارة ابنه الأمير (امبرتودي سافيا) وحشدت الجموع من أبناء المدينة في كل مكان يمر به الموكب تنفيذاً لبرنامج استعماري يهدف إلى الدعاية لإيطاليا وإظهارها بمظهر الدولة المصلحة المتمدنة.
وفي سنة 1935م، 1354هـ أنشئ نادٍ لشباب (الليتورير العربي) وكان الغرض منه بث الروح الفاشستية في نفوس الناشئين من أبناء هذا الوطن، وسلخهم عن لغتهم، وقطع كل صلة تربطهم بماضيهم وتاريخهم، فقد نسب شعار هذه المنظمة إلى شعار

يسمى (الفاشيو ليتوريو Fascio-Lirrorio) وهو شعار روماني قديم وهو عبارة عن حزمة من القضبان والفأس كان يحملها جماعة من الرومان، يكون لهم شرف السير أمام القضاة، واتخذه الفاشستيون شعاراً لحزبهم ورمزاً لاتحادهم وقوتهم، وقتال أعدائهم وخصومهم.

وفي سنة 1936م - 1355هـ أجرت إيطاليا تعديلات جديدة على التنظيم الفدرالي في ليبيا حيث قسمت ليبيا إلى أربع ولايات هي (طرابلس ومصراته وبنغازي ودرنة) وبذلك أصبحت درنة هي الولاية الرابعة في ليبيا.

وفي شهر مارس من سنة 1937 زار درنة (الدوتشي بينيتو موسوليني) ضمن زيارته الرسمية لليبيا، وقد تضمن برنامج زيارة (الدوتشي) لمدينة درنة زيارة (الجامع الكبير) حيث أهدى له (ثريا كهربائية) وزيارة المدرسة الابتدائية للبنات العربيات واستعراض فرق من (شباب الليتوريو العربي) وشاهد في المساء فصلاً من تمثيلية (هارون الرشيد وخليفة الصياد) بمسرح درنة قدمته (فرقة هواة التمثيل الدرناوية).

وفي شهر يونية 1938م - ربيع الثاني 1358هـ زار مدينة درنة مليك إيطاليا (فيتوريو ايمانويلي الثالث) ضمن برنامج زيارته الثانية لليبيا، وقد أقيمت مظاهر الزينة في جميع أنحاء المدينة وشهد فصلا من تمثيلية (هارون الرشيد وخليفة الصياد).

وفي شهر ابريل سنة 1939م - ربيع الأول شهدت مدينة درنه احتفالاً رسميا أقامته السلطات الإيطالية بمناسبة توزيع شهادات (الوطنية الإيطالية .. كان ذلك في 21 ابريل، ويناسب عندهم ذكرى تأسيس روما وعيد العلم في وقت واحد) حيث وزعت هذه الشهادات على الوجهاء والأعيان والموظفين وقد حضر الاحتفال حاكم ليبيا العام (المارشالو ايتالوبالبو) الذي قام بتوزيع 2000 شهادة على 2000 من أبناء ليبيا اختيروا من بين 4000 آلاف مرشح، وزع منها 160 في درنة و 200 في بنغازي و 600 في مصراته و 1000 في طرابلس وقد أطلق على هذه الشهادات اسم (الشهادة الوطنية Cittadinanza) تحاشياً من عبارة (الجنسية الإيطالية) التي قد تثير شعور المسلمين في الأقطار الأخرى، ومع ذلك فقد قابل أبناء ليبيا المسلمة توزيع تلك الشهادات بالسخط والاستياء وإن كانوا قد اضطروا إلى التأييد بإقامة الزينات وإلقاء الكلمات.

المنشآت الإيطالية في مدينة درنة بعد الاحتلال :

1- **الحائط الصخري (السور) :** شرعت سلطات الاحتلال في بناء الحائط الصخري (السور) بعد السنوات الأولى من احتلال المدينة ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلاث أمتار وطوله حوالي ثلاثة كيلومترات وبه عدة فتحات صغيرة للمراقبة وأربعة أبواب لكل باب قلعة صغيرة يقيم بها الحراس (الكارابينيري)يراقبون كل داخل وخارج وقد بالغوا في الحراسة والرقابة فكانوا يفحصون جميع أمتعة الخارجين من أبواب السور والقادمين من خارجه حتى ثيابهم وأحزمتهم ولكن ذلك كله لم يحل دون تهريب المؤن والذخيرة إلى المجاهدين الرابضين في معاقلهم.

2- **جسر يربط بين ضفتي الوادي المتقابلتين عند منتصف المدينة :** شرع في تشييده سنة 1914م - 1332هـ، وتم في سنة 1916م - 1334هـ .. وقد شيد من الصخر المتراص، وبه ثلاث فتحات تعبر من فوقها السيارات والعربات، وعلى جانبيه رصيفان للمشاة وقد سمي أهل درنة هذا الجسر (القوس) أو (الأقواس) لان فتحاته الثلاث على شكل أقواس، وكانت الطريق التي أنشئت بالضفة الشرقية تنفذ من الفتحة المحاذية لها، غير أن هذا المنفذ ألغي أخيراً، واستبدل بسلم يصعد معه المارة، إلى المعبر .. ويحدثنا المعمرون أن فيضان الوادي كان يفصل بين سكان المدينة، بعضهم عن بعض عندئذ يقوم سكان الضفة الغربية بإيواء وضيافة من يحجزهم الفيضان عن أهلهم وأسرهم بالضفة الشرقية، حتى تنحسر المياه، وكذلك يفعل سكان الضفة الشرقية.

3- **مقر المتصرفية :** وبه مكتب المتصرف الإيطالي، وسكرتيره، ومكاتب الدوائر الملحقة به، وجميع موظفي المتصرفية من الإيطاليين، باستثناء بعض الموظفين من العرب، يعدون على الأصابع، عينوا في وظائف خاصة، وقد أطلق على هذه المتصرفية اسم (الساسة) ومعناها : السياسة، وإنما أطلق الاسم لان مهمتها سياسة أكثر منها مدنية إذ كانت وظيفة المتصرف تنحصر في تنفيذ السياسة الإيطالية التي ترسمها وزارة المستعمرات الإيطالية في ذلك الوقت.

4- المستشفى المدني : شرع في إنشائه سنة 1914م - 1332هـ وكان به طبيب إيطالي، وعدد من الممرضات الإيطاليات الراهبات (السوريلات Sorele) وقليل من الممرضين من أبناء العرب.

5- **مكتب البريد والهاتف :** أنشئ أيضاً سنة 1914م ويتألف من طابقين، سفلي وبه مكاتب البريد والفراشين، وجميع العاملين به من الإيطاليين ماعدا موزعي البريد والفراشين، أما الطابق العلوي فقد اتخذ مقراً للمحكمة المدنية وبها قاضي إيطالي وعدد من الكتبة وترجمان وكانت هذه المحكمة تعرف باسم (التريبونار) وهو الاسم (Tribunale)، وقد عقدت بهذه المحكمة عدة جلسات، قضت بإعدام كثير من أبناء هذا الوطن.

6- **دائرة مستنبت زراعي :** أنشئ في أوائل العشرينات على مساحة كبيرة من الأرض بحي (الجبيلة) وقد تقسم إلى عدة أقسام، حسب أنواع شتلات الشجر، وبه مكاتب للموظفين والخبراء الزراعيين، كما نصب بواسطة رافعتان عودان في كل واحد منهما مروحة أسطوانية، تدور بواسطة الريح، لسحب المياه الجوفية، وري الغراس وسمي السكان هذا المستنبت باسمه الإيطالي (الفيشقراريو).

7- **مرسى جديد (ميناء) :** أنشأ الإيطاليون مرسى جديد للميناء، في الجانب الشرقي للمدينة، وألغوا الميناء القديم، الذي يرجع أصل إنشائه إلى العهد العثماني الثاني، كما أنشئوا دائرة للجمارك (الدوقان Dogana) ومركز للحرس الجمركي (فينيسيا Finazna) ومؤسسة للنقل البحري (قبطانارية Capitaneria) وقد تطورت هذه المؤسسة حتى بلغ عددها ست مؤسسات للمواصلات البحرية.

8- **المكتب العقاري (Officio fondiario) :** أنشئ هو الآخر سنة 1914م، وبدأ يزاول مهمته الأصلية سنة 1915م وكانت مهمته تثبيت ملكية العقارات والمزارع، وتثبيت ما يطرأ عليها من بيع وشراء وميراث .. الخ ..

غير أن هناك هدفاً آخر كانت السلطات الإيطالية تسعى لبلوغه، وهو الاستيلاء على العقارات والمزارع من أصحابها أبناء الوطن، وذلك بإفساح المجال لذوي الأموال من الإيطاليين وأفراد الجالية اليونانية بدرنة (مكافأة لهم لما قدموه من خدمات لتمهيدهم للغزو الإيطالي) ولمؤسسات المصارف لامتلاك الأراضي من أصحابها الأصليين عن طريق تقديم القروض المالية والسلع التجارية وتشجيع التجار وأرباب الحقول وإغرائهم بالقرض والاستدانة مقابل رهن سندات أملاكهم الزراعية الأصلية بفائدة مئوية ولأجل معين، وتورط جماعة من التجار والمزارعين، أصحاب العقارات في اقتراض المال واستدانة البضائع وخاصة في موسم الحرث معتمدين على خصب العام وعلى نماء التجارة بالربح، ولكن عند العجز عن تسديد ما عليهم فيضطروا إلى مد الأجل بفائدة مضاعفة، فتكون النتيجة أن تضاعفت المبالغ أضعافا كثيرة وأحيلت القضية إلى مكتب الحجز العقاري الذي يعمل بدوره بعض الإجراءات وينتهي الأمر بإخلاء البيت أو المزرعة طوعاً أو كرهاً، هذا بالإضافة إلى كثير من الأراضي والممتلكات التي استولت عليها السلطات الإيطالية بحجة أنها كانت ملكاً للدولة العثمانية وقد آلت ملكيتها للدولة الإيطالية.

---

9. درنة أثناء الحرب العالمية الثانية :

تعرضت مدينة درنة للغارات الجوية طيلة السنوات الثلاث الأولى من سنوات الحرب العالمية الثانية، التي اشتدت وطأتها بين قوات الحلفاء وبين قوات المحور في الشمال الإفريقي، وقد هدمت تلك الغارات الجوية كثيراً من المساكن والمنشآت، كما ذهب ضحيتها العديد من الشباب والشيوخ والنساء والأطفال.

وأول غارة جوية استهدفت مدينة درنة - من سلاح الجو البريطاني - كانت في شهر يوليو من سنة 1940م - أوائل شهر جمادى الأخرى 1359هـ، حيث استهدفت الطائرات بقنابلها محطة النور، غير أن المحطة لم تصب بضرر وتساقطت بعض القنابل على المنازل المجاورة، فاستشهد عدد من الرجال والنساء والأطفال، فكانوا أول ضحايا الغارات الجوية على مدينة درنة، وترتب على هذه الغارات أن التجأ سكان المدينة إلى سكنى الكهوف والمغارات بأعلى الوادي وفي حي (المغار) وحي (بومنصور) كما التجأت بعض من الأسر إلى أطراف المدينة وقرى الجبل الخضر.

وكما تعرضت مدينة درنة للغارات فقد تعرضت أيضاً للانسحابات التي توالت على الشق الشرقي من ليبيا، أثناء تلك الحرب الطاحنة ن ففي الأسبوع الثالث من شهر ديسمبر 1940م - الأسبوع الثالث من شهر ذي القعدة 1359هـ اقترب الجيش الأسترالي من مدينة درنة، وكان ذلك بعد أسبوعين من مهاجمة القوات البريطانية

لقوات (غراسياني) ومواقع الجيش الإيطالي في منطقة (البراني) و (السلوم)، ولم تبدأ القوات الإيطالية المندحرة مقاومة تذكر، وقد أسر الجيش الأسترالي عشرات الآلاف من الجنود الإيطاليين المنسحبين وخلاصة في مناطق الجبل الأخضر بعد عملية (الالتفاف) التي رسمها الجنرال (ويفل) في زحفه الأول على الشق الشرقي من ليبيا، هذا ولم يبق بمدينة درنة جندي إيطالي واحد، أما الإيطاليون المدنيون فقد بادرت السلطات الإيطالية بترحيلهم عن المدينة منذ الأيام الأولى من بداية الانسحاب.

وحين شرفت القوات الأسترالية الزاحفة على مدينة درنة وجهت بعض دباباتها قذائفها، فأحدثت ثغرة في الجانب الشرقي من السور الذي كان يحيط بالمدينة، وبادر جماعة من السكان بتشكيل وفد ضم أربعين رجلاً حملوا الراية البيضاء، وقابلوا قائد الفرقة المهاجمة، وأعلنوا أن المدينة خالية من أية مقاومة، فدخلت كتيبة من الجيش الأسترالي المدينة بسلام يوم 23 ديسمبر 1940م - 23 من ذي القعدة 1359هـ، ثم تدفقت بقية الفرق الزاحفة على المدينة تجوب شوارعها، وخاصة الشوارع الرئيسية وميدان البلدية.

ومما يستحق التسجيل أن جنود الجيش الأسترالي قد حافظوا على حرمة السكان العرب، وعلى ممتلكاتهم ومتاجرهم، عملاً بتعليمات خاصة صادرة إليهم من القيادة العلية للحلفاء، تنص على احترام السكان العرب، باعتبارهم مسالمين وأصدقاء ومنهم المجاهدين المشاركين لقوات الحلفاء ضد النازية والفاشستية، كما أن (ويفل) قائد الجيش الأسترالي قد أصدر منشوراً باللغة الإنجليزية والعربية والإيطالية، يحث فيه جميع السكان المدنيين على وجوب الحفاظ على النظام والأمن، وقد علقت نسخة من هذا المنشور بميدان البلدية، ولم يحدث أثناء وجود القوات الأسترالية ما يخل بأمن السكان إلا اعتداءات فردية، ارتكبها نفر من الجنود الأستراليين وهم سكارى، وإنما الذي حدث أن السكان الذين بقوا في مساكنهم، أثناء الغارات الجوية قد ظفروا بغنائم كثيرة مما تركه الإيطاليون وراء هزيمتهم وانسحابهم المفاجئ فقد ظفروا بمخازن مملوءة بالمؤن ومن متاجر ومؤسسات مشحونة ببضائع وأدوات ومعدات مختلفة فضلاً عن الآلات الميكانيكية، وعدد من السيارات، وكميات من الذخيرة والسلاح، فكانت تلك الغنائم سبباً في ثراء جماعة من السكان.

هذا وقد شعر الجميع بالاطمئنان وبالخلاص، بعد أن رأوا بأعينهم هزيمة الجيش الإيطالي أمام الجند الأستراليين، غير أن هذا الشعور بدأ يتعكر حين سمعوا نبأ هجوم القوات الألمانية على منطقة (العقيلة) في الأسبوع الأخير من شهر مارس 1941م - الأسبوع الثالث من صفر 1360هـ، وقد استولى الخوف والقلق على سكان الشق الشرقي من ليبيا منذ بدأت كتائب الجيش الأسترالي تنسحب متراجعة صوب الحدود الشرقية، بعد أن توقفت عند (البريقة) و(العقيلة) وتوقعوا أن خطراً جسيماً سوف يحل بهم، إذا عاد الإيطاليون ظافرين، إنهم لا محالة سيوجهون رصاص بنادقهم ورشاشاتهم إلى كل عربي، وسيغمدون خناجرهم في أعناق وبطون السكان العزل، لاسيما وأنهم علوا أن الأهالي قد استقبلوا الجيش الاسترالي

بالترحيب والتأييد، وأن كثيراً منهم قد انظموا إلى جيش الحلفاء، نعم إن الإيطاليين هم الذين سبق لهم ارتكاب المذابح الشنيعة والبشعة والجرائم المنكرة في هذه البقاع.
وقد كان أفراد الجالية اليهودية في درنة أشد خوفاً ورعباً، خاصة وأن القادمين هم من جيش ألمانيا النازية، التي أبادت الملايين من اليهود، وأيقنوا أن ما حدث لأبناء جنسهم سيحل بهم لا محالة.



- الشيخ العلامة **مصطفى الطرابلسي**، ولد بمدينة درنة سنة 1922م، وتوفي سنة 2002م
- تعلم في المدارس الإيطالية العربية، والكتاتيب، حفظ القرآن الكريم.
- عمل بالتدريس ثم أنتدب مشرفاً لفرع الإذاعة الليبية بمدينة درنة عام 1963م، وأنتدب للتفتيش الفني، إلى أن تقاعد.
- له العديد من الدراسات الخاصة في الأدب والتاريخ والتربية وعلم النفس، وغيرها من العلوم بالإضافة لدراساته في علوم القرآن والفقه الإسلامي.
- من مؤلفاته كتاب "درنة الزاهرة" والذي يعد من المراجع الأساسية في تاريخ مدينة درنة الاجتماعي، والثقافي، وكتب "ملخص أحكام العبادات" و"أحكام التلاوة"، و"جولة مع الخط العربي"، وأشترك في تأليف كتب "أحكام الصوم"، و"أحكام الزكاة"، بالإضافة لمجموعة من القصص التربوية، وبحوث عن الإسلام والتصوف.
- له في مجال الترجمة كتاب "الفرسان القديسون في طرابلس".
- نشرت له العديد من المقالات في الصحف المحلية والدوريات.

This document is designed and publishing by:
Publisher: **Nietzsche**
Derna - Libya MMIX
http://www.4shared.com/u/qpstpzv/c08af5c6/Nietzsche.html